الإسلامُ سرّ الفدائيّة

قاوم عشرون جنديًا مصريًا يقودهم العريف محمد أحمد عيسى في (أبو عجيلة) جيش إسرائيل بدبابته ومصفحاته وطائراته ست عشرة ساعة هزموه ثلاث مرات، قتلوا فيها مائتين من جنده ودمروا اثنتي عشرة من مصفحاته[1] ثم لحقوا بجيشهم دون أن تمسهم جراح، أو يفقد من أحد منهم سلاح! فحققوا بذلك قول الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: 65] فما سر هذه القوة التي تجعل من القلة كثرة، ومن الضعف قوة، ومن الأنانية فدائية؟ سرها يعرفه الإسلام وحده، فقد كان العرب من قبله قوى مبعثرة على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة ولا تربطها رابطة. فلما اصطفاها الله لإعلان كلمته أمدهم بروح من عنده وحدت الشتيت وألفت النافر وجمعت القوة. تلك الروح هي السر الإلهي الذي لا يزال كامنًا في الجهاد والاستشهاد والإيثار من يوم شُرع القتال إلى يوم هوجم القنال، ولم ينفك أبدًا عن مسلم، ولم يخذله أبدًا في حرب. كان يتمثل له في صور الملائكة تقاتل معه، ويتحقق عنده في الوعد الصادق من الله بالنصر أو بالجنة. ثم يقويه في نفسه على توالي الأعقاب والأحقاب الانقياد لله وللرسول وقد جمع الله له تدبير الحروب في آيتين من كتابه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ [الأنفال: 45]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: 46]؛ والإيمان بالقضاء والقدر، وقد قال الله لنبيه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 50]. فالمؤمن بمقدور الله يرمي بنفسه في وجه الموت لا يبالي أن يقتل أو يُقتل، لأنه في إحدى الحالتين سيظفر بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. وكان في أكثر هجماته يصيب وفي أقلها يصاب. ولذلك قالوا عن عقيدة وتجربة: اطلب الموت توهب لك الحياة. والحذر لا ينجي من القدر.

وإذا لـم يكـن مـن المـوت بـد ... فمـن العجـز أن تمـوت جبانـا

ولـو أن الحيـاة تبقـى لحـي ... لوجـدنا أضـلنا الشـجعانا

(1) في معركة العدوان الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي على مصر سنة 1956.

وفي واقعة اليرموك قال عكرمة ابن أبي جهل لرفاقه من المجاهدين: " من يبايع على الموت؟ " فكان لهذه الكلمة في نفوسهم فعل السحر فتدفقوا على علوج الروم بالسيوف حتى دحروهم. وكان سيف الله خالد بن الوليد يود لو يظفر بالشهادة في سبيل الله فلم تُكتب له، فقال يتحسر وهو في سياق الموت: " لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي، فلا نامت أعين الجبناء ! ".

بهذا الروح المنبثق من روح الله في نفوس المجاهدين خرج البدريون وهم زهاء الثلاثمائة إلى أئمة الكفر من أبطال قريش وهم زهاء الألف، فكبكبوهم قتلى في وادي بدر، وعادت الفئة القليلة إلى يثرب بالنصر والأسرى، وعادت الفئة الكثيرة إلى مكة بالهزيمة والجرحى. وبهذا الروح المبثوث من روح الله في دماء المجاهدين خرج بدو الجزيرة من أجواف الأودية وأعماق الفقر ضئال الجسوم قلال العدد ضعاف القوة إلى لقاء الإمبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الأرض فقوضوا الإيوان على مُلك كسرى، وحطموا العرش على سلطان قيصر. وبهذا الروح الإلهي الملتهب في أعصاب المجاهدين أذلت زوارق الطربيد المصرية كبرياء الأسطولين الإنجليزي والفرنسي في مياه البحر الأبيض والبحر الأحمر، وبهذا الروح الخفي الذي يغمض كنهه ويستدق فهمه على عقل الإنسان صمدت بورسعيد في وجوه مائة وستين ألفًا من جنود العدو، ووقف عشرون جنديًا في أبو عجيلة أمام جيش إسرائيل بأسره. ذلك لأن الشجاعة من مدد القلب لا من عدد الجيش.

الجهاد في سبيل الله أو في سبيل الوطن فرض عين على كل مسلم قادر إذا وقع المسلمون في خطر عام لا يقدر على دفعه قوم دون قوم كالاستعمار والصهيونية. والقيام به لا يتقيد بزمن ولا أرض ولا جنس. مثله في ذلك مثل الأركان الخمسة للإسلام، ولكنه يختلف عنها في أمر دقيق. ذلك أن المسلم قد تضعف في نفسه الدواعي إلى إقامة هذه الأركان كلها أو بعضها، فيترك الصلاة والصوم، ويهمل الزكاة والحج، وإذا ذكَّره بها واعظ أو حثه عليها خطيب جعل قوله دبْر أذنه. ولعل السبب في هذا الضعف أن العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه فلا وازع له إلا من ضميره.

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلات بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وتراثه وذكرياته وأمانيه، فهي لا تزال حية في النفوس على طول الزمن وشدة الترك، كالنار في البركان الهادئ، تسكن ولا تنطفئ، وتكمن ولا تظهر، حتى إذا أثارتها الحمية لدين يهان أو لوطن يهاجم انفجرت في نفوس المؤمنين انفجار الحمم فلا تذر من شيء أتت عليه إلا أهلكته. بذلك نفسر هذه الصيحة العامة التي أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة على انقطاع السبب وتباعد الشقة، تستنكر العدوان على مصر وتستعد لدفعه عنها بالمال والنفس. وليس عطف العرب على الجزائر ولا غضب المسلمين لمصر ناشئين عن عصبية الجنس أو عن حق الجوار، وإنما نشأ عن تلك الحفيظة الدينية التي أوحاها الله في الكتاب، وبينها الرسول في السنة، وفصلها الفقهاء في الفقه.

والجهاد كسائر الأركان يستند إلى نص القرآن الكريم. وإن من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود وجملة ما يتألف منه قانون الحرب في الإسلام. ومن تلك السور سورتا التوبة والأنفال.

ومن المغازي الدقيقة للقرآن الكريم أنه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو، لأنه يأمر بالثبات وينهى عن الهزيمة إلا لخدعة أو نجدة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: 15-16].